

وَقْتُ لِلثِّقَةِ

المحاضرة ١: وَقْتُ لِلثِّقَةِ

ستيفن نيكيلس

نَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنِ الثِّقَةِ، عَنِ وَقْتِ لِلثِّقَةِ. لَكِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَبْدَأَ مِنَ الْقَرْنِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ؛ بَلْ أُرْعَبُ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى آبَاءِ الْكَنِيسَةِ. لِذَا، دَعَوْنِي أَرْوِي رِوَايَةَ عَنِ اثْنَيْنِ مِنْ آبَاءِ الْكَنِيسَةِ. يَتَذَكَّرُ جَمِيعُكُمْ بِالطَّبْعِ، رِوَايَةَ نُشَارْلز دِيكَنْز "قِصَّةُ مَدِينَتَيْنِ" الَّتِي تَبْدَأُ بِـ "كَانَ أَحْسَنَ الْأَزْمَانِ، وَكَانَ أَسْوَأَ الْأَزْمَانِ". حَسَنًا، لَوْ أَرَدْنَا إِخْبَارَكُمْ الْقِصَّةَ، لَقُلْنَا: "كَانَ أَسْوَأَ الْأَزْمَانِ. كَانَ أَسْوَأَ الْأَزْمَانِ". فِي الْعَامِ ٤٢٠. إِبَّانَ الْعَقْدِ الْأَخِيرِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، كَانَ هُنَاكَ الْوِنْدَالُ وَالْبَرَابَرَةُ - أَيْ إِنْ لَمْ تَكُنْ رُومَانِيًّا، حَسَنًا؟ فَأَنْتَ بَرَبْرِيٌّ؛ إِذَا كَانَتْ الْهُويَّةُ: إِمَّا أَنْتَ رُومَانِيٌّ أَوْ بَرَبْرِيٌّ. إِذْ كَانَ الْبَرَابَرَةُ حَرْفِيًّا عَلَى الْأَبْوَابِ. فِي الْحَقِيقَةِ، لَقَدْ افْتَحَمُوا الْأَبْوَابَ. مَا هَدَّدَ الْإِمْبْرَاطُورِيَّةَ الرُّومَانِيَّةَ الْعَظِيمَةَ. لِذَا اسْتَجَابَ اثْنَانِ مِنْ آبَاءِ الْكَنِيسَةِ. الْأَوَّلُ هُوَ الْقَدِيسُ جِيرُومُ. الْآنَ، جِيرُومُ وُلِدَ فِي مُقَاطَعَةِ رُومَانِيَّةٍ تُدْعَى دَلْمَاطِيَا، أَيْ سُلُوفِينِيَا الْيَوْمَ. وَقَدْ أَظْهَرَ بَرَاعَةً اسْتِثْنَائِيَّةً فِي التَّعَلُّمِ فِي صِبَاهُ، وَكَانَ لَامِعًا، فَأَرْسَلُوهُ إِلَى رُومَا لِيُدْرَسَ. لِذَا يَسْهَلُ تَذَكُّرُ مَقُولَةٍ: "جِيرُومُ فِي بِلَادِ الرُّومِ". إِنَّهُ لَسَجَّعٌ جَمِيلٌ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ فَذَهَبَ إِلَى رُومَا، وَأَصْبَحَ أَسْتَاذًا ضَلِيعًا. فِي الْحَقِيقَةِ، إِنَّهُ جِيرُومُ عَيْنُهُ مِنْ ذَاغٍ صِيئُهُ لِكُونِهِ قَدَّمَ لَنَا تَرْجَمَةً فُولْجَاتَا اللَّاتِينِيَّةَ. وَ"فُولْجَاتَا" كَلِمَةٌ لَاتِينِيَّةٌ تَعْنِي "الْعَامِيَّةُ"، إِذْ كَانَتْ اللَّاتِينِيَّةُ هِيَ اللُّغَةُ الْعَامِيَّةُ فِي الْإِمْبْرَاطُورِيَّةِ. فَمَعَ انْحِسَارِ اللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ، ظَهَرَتِ اللَّاتِينِيَّةُ عَلَى السَّاحَةِ. لِذَلِكَ قَدَّمَ لَنَا جِيرُومُ تَرْجَمَةَ الْفُولْجَاتَا اللَّاتِينِيَّةَ. كَانَ عَالِمًا مُعْظَمَ حَيَاتِهِ. ثُمَّ فِي الْعُشْرِيَّةِ الْأُولَى مِنَ الْقَرْنِ الْخَامِسِ، بَدَأَتْ رُومَا تَنْهَارُ. بِالنِّسْبَةِ لِجِيرُومَ كَانَتْ رُومَا الْأَسَاسَ، وَاعْتَقَدَتْ أَنَّهَا مُخْلِصَةُ الْعَالَمِ. وَحِينَمَا بَدَأَتْ تَنْهَارُ، اعْتَقَدَ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ سَيَضِيعُ. فَقَضَى السَّنَةَ الْأَخِيرَةَ مِنْ حَيَاتِهِ مُخْتَبِئًا فِي مَعَارِزٍ فِي مَدِينَةِ بَيْتِ لَحْمٍ. وَفِي عَامِ ٤٢٠ مَاتَ.

حَسَنًا أَبُ الْكَنِيسَةِ الثَّانِي هُوَ الْقَدِيسُ أَوْغُسْطِينُوسُ. جَمِيعُنَا عَلَى دِرَايَةِ بَدْرَةِ أَعْمَالِهِ كِتَابُ "الْاعْتِرَافَاتِ"، حَيْثُ يَرْوِي قِصَّةَ الْكَائِنِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي كَانَ يُطَارِدُهُ، وَكَيْفَ جَذَبَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ. هَذَا وَقَدْ سِيمَ أَوْغُسْطِينُوسُ أُسْقُفًا عَلَى هِيُون رِيْمِيُوسَ. إِنَّهَا إِحْدَى مُقَاطَعَاتِ شِمَالِي أُفْرِيْقِيَا. وَهِيَ مَدِينَةُ إِسْلَامِيَّةٌ الْآنَ وَقَدْ كَانَ أَوْغُسْطِينُوسُ أُسْقُفًا عَلَيْهَا. وَهَكَذَا عَاشَ الْأَمْرَ ذَاتَهُ. فَمَاذَا فَعَلَ؟ أَخَذَ يَدْرُسُ وَكَتَبَ كِتَابًا. كَتَبَ كِتَابًا رَائِعًا، بِعُنْوَانِ "مَدِينَةُ اللَّهِ". الْآنَ، دَبَّرَ اللَّهُ أَنْ كَانَتْ نُسَخَتِي مِنْ هَذَا الْكِتَابِ مَوْضُوعَةً هُنَا. لَكِنَّهُ كِتَابٌ كَبِيرٌ جَدًّا، وَفِي بَدَايَتِهِ يُخْبِرُنَا أَوْغُسْطِينُوسُ بِأَحَدِ الْأُمُورِ إِذْ يَقُولُ: "إِنَّهُ عَمَلٌ ضَخْمٌ، إِنَّهُ لَعَمَلٌ مُضْنٍ". وَلَا يَقْصِدُ بِكَلِمَةٍ ضَخْمٍ، أَنَّهُ كِتَابٌ مُمْتَازٌ. بَلْ يَقْصِدُ أَنَّهُ كَبِيرٌ، لِأَنَّهُ سَيَرْوِي فِيهِ تَارِيخَ الْبَشَرِ؛ إِنَّهَا رِوَايَةٌ عَنِ أَرْضَيْنِ: مَدِينَةِ اللَّهِ وَمَدِينَةِ الْإِنْسَانِ. لِذَا يَقُولُ: "هَذَا عَمَلٌ مُضْنٌ، يَرْفَعُنَا، لَا يُغْرُورُ بِبَشَرِيٍّ مُخْضٍ، بَلْ بِنِعْمَةِ إِلَهِيَّةٍ، فَوْقَ الْمَرَكَزِ الْأَرْضِيَّةِ الْمُتْرَعْرِعَةِ" - أَتَلَا حِطُونَ الْعِبَارَةَ الَّتِي اسْتُخْدِمَهَا؟ - "الْمُتْرَعْرِعَةُ عَلَى هَذَا الْمَسْرَجِ الْمُتَعَيَّرِ".

الآن، إِنَّهُ التَّقْيِضُ تَمَامًا. عِنْدَنَا جِيْرُومُ. الَّذِي يَرَى الْبَرَابِرَةَ عَلَى الْأَبْوَابِ، فَيَقُولُ: "الْعَالَمُ يَنْهَارُ! نَعَمْ!" ثُمَّ يَهْرُبُ إِلَى مَعَارَتِهِ. بَيْنَمَا يَنْظُرُ أَوْغُسْطِينُوسُ إِلَى هَذَا وَيَقُولُ: "سَتَلْتَقَى رُؤْيِيَّةً -رُؤْيِيَّةً سَامِيَّةً- حِيَالًا مَا يَحْدُثُ فِي أَفْقٍ مَا هُوَ زَائِلٌ وَوَقِيٌّ وَأَرْضِيٌّ، لِأَنَّ مَا يَحْدُثُ عَلَى الْأَرْضِ كَالرَّمَالِ الْمُتَحَرِّكَةِ الْمُتَعَبِّرَةِ".

لِذَا كَتَبَ كِتَابًا مِنْ ٨٦٩ صَفْحَةً فِي نُسخِي الْإِنْجِلِيزِيَّةِ. سَأَتَجَاوَزُ لُبَّ الْكِتَابِ، لِضِيقِ الْوَقْتِ الَّذِي لَدَيْنَا مَعًا، وَسَأَقْفِرُ مُبَاشَرَةً إِلَى نَهَائِيَّةِ. لَقَدْ رَوَيْتُ لَكُمْ الْبِدَايَةَ، فَسَأُرَوِي لَكُمْ مِنَ النِّهَايَةِ، لَكِنْ عَالِبًا مَا سَتَعِدُونَنِي بِأَنَّكُمْ سَتَعُودُونَ لِقِرَاءَةِ لُبِّ الْكِتَابِ كَامِلًا. فِي الْحَقِيقَةِ، فِي نَهَايَةِ هَذَا الْكِتَابِ عِبَارَةٌ يَقُولُ فِيهَا: "قَدْ يَعْتَقِدُ الْبَعْضُ أَنِّي بَالِغْتُ فِي الْكِتَابَةِ". لَا أَعْرِفُ مَنْ هَذَا، مِنَ الَّذِي يَعْتَقِدُ أَنَّهُ بَالِغٌ فِي الْكِتَابَةِ. "وَقَدْ يَعْتَقِدُ آخَرُونَ أَنَّنِي فَصَّرْتُ فِيهَا". ثُمَّ يَسْتَظِرُّدُ: "أَعْتَقِدُ أَنِّي أَوْفَيْتُ الْأَمْرَ حَقًّا". شَيْءٌ مِنْ قَبِيلِ قِصَّةِ "ذَاتُ الشَّعْرِ الذَّهَبِيِّ وَالذَّبَّابَةُ الثَّلَاثَةُ"، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لَكِنْ فِي نَهَايَةِ الْكِتَابِ، هَذَا مَا يَقُولُهُ عَنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ حِينَ يَظْهَرُ كَامِلًا: "مَا أَعْظَمَ هَذِهِ السَّعَادَةَ". أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ وَالسَّعَادَةُ أَحَدُ مُرَادِفَاتِ الْهَنَاءِ.

مَا أَعْظَمَ هَذِهِ السَّعَادَةَ الَّتِي تَتَحَقَّقُ عِنْدَمَا يَبْطُلُ كُلُّ شَرٍّ، وَيَخْرُجُ كُلُّ خَيْرٍ إِلَى الثُّورِ؛ وَالَّتِي لَنْ تَدَخِرَ جُهْدًا لِمَدْحِ اللَّهِ الَّذِي سَيَكُونُ كَلًّا فِي الْكُلِّ. حَيْثُ سَيَتِمُّ التَّمَتُّعُ بِالْجَمَالِ، وَاخْتِبَارُ الْمَجْدِ الْحَقِيقِيِّ، وَحَيْثُ يَسُودُ السَّلَامُ الْحَقِيقِيُّ، وَحَيْثُ اللَّهُ نَفْسُهُ، نَبْعُ كُلِّ فَضِيلَةٍ، يَكُونُ مَوْجُودًا وَيَكُونُ الْجَمْعَالَةَ.

أَتَرُونَ، حَمَلُ أَوْغُسْطِينُوسُ رُؤْيِيَّةً حِيَالًا مَا كَانَ يَحْدُثُ فِي رُومًا، وَإِنْهِيَارِ إِمْبِرَاطُورِيَّتَيْهَا، إِذْ وَضَعَ ثِقَّتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الصَّحِيحِ. فَرَّ جِيْرُومُ حِينَ بَدَأَتْ الرَّمَالُ تَتَحَرَّكُ وَلَمْ يَسْتَطِعِ الْمَقَاوِمَةَ -لِأَنَّهُ لَمْ يَشْعُرْ بِقَدَمَيْهِ تَحْتَهُ. إِذْ كَانَ قَدْ وَضَعَ ثِقَّتَهُ فِي الْمَوْضِعِ الْخَطَأِ، وَضَعَ ثِقَّتَهُ فِي قَبْصِرٍ، وَضَعَ ثِقَّتَهُ فِي رُومًا. وَضَعَهَا فِي الْمَوْضِعِ الْخَطَأِ. وَعِنْدَمَا اهْتَرَّ هَذَا الْمَوْضِعُ الْخَطَأَ، خَرَجَ مِثْلُ "فَرُوجِ الْقِلَّةِ". أَتَذْكُرُونَ شَخْصِيَّةَ "فَرُوجِ الْقِلَّةِ"؟ حِينَ كَانَ نَائِمًا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، وَسَقَطَ الْبُلُوطُ عَلَى رَأْسِهِ، وَظَنَّ أَنَّ جُزْءًا مِنَ السَّمَاءِ قَدْ انْشَقَّ وَسَقَطَ، وَبَدَأَ يَحْدُرُ مِنْ أَشْيَاءَ سَيِّئَةٍ لِلْعَايَةِ سَتَحْدُثُ لِأَنَّ السَّمَاءَ تَسْقُطُ. وَهَكَذَا، ظَلَّ "فَرُوجِ الْقِلَّةِ" يَجُوبُ قَائِلًا: "السَّمَاءُ تَسْقُطُ! السَّمَاءُ تَسْقُطُ!" هَذَا بِالضَّبْطِ مَا فَعَلَهُ الْقُدَيْسُ جِيْرُومُ، لِأَنَّ الْعَالَمَ كَانَ سَيَنْتَهِي فِي عَامِ ٤٢٠. هَلِ انْتَهَى؟ لَا. حَسَنًا، فَنَحْنُ هُنَا الْآنَ، بَعْدَ بَضْعَةِ قُرُونٍ مِنْ عَامِ ٤٢٠. يَا لَهَا مِنْ رِوَايَةٍ مُثِيرَةٍ. كَمَا أَنَّهَا تُمَهِّدُ الطَّرِيقَ لَنَا لِتَتَأَمَّلَ اللَّحْظَةَ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا.

فَلْتَتَأَمَّلِ اللَّحْظَةَ الَّتِي نَحْيَاهَا الْآنَ. فَلْنَخْتَرِ أَيَّ تَارِيخٍ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ. فَلْنَخْتَرِ صَيْفَ عَامِ ٢٠١٥، وَلْتَتَحَدَّثْ عَنْ قَرَارِ الْمَحْكَمَةِ الْعُلْيَا بِتَقْنِينِ زَوَاجِ الْمُثَلِّيِّينَ. أَوْ لِنَعُدْ إِلَى الصَّيْفِ السَّابِقِ لَهُ، وَنَخْتَرِ حَدًّا أَقَلَّ أَهْمِيَّةٍ مُرْتَبِطًا بِهِ، حِينَ أَصْدَرَ عُمْدَةُ هِيُوسْتِنِ مُدْكَرَاتٍ إِحْضَارٍ لِلْعِظَاتِ فِي الْمَدِينَةِ لِيَرَى مَا إِذَا كَانَتْ تَحْمِلُ لُغَةً كَرَاهِيَّةً. بَدَأَ وَكَانَهُ أَمْرٌ قَلِيلُ الْأَهْمِيَّةِ نِسْبِيًّا. قَدْ نَنْظُرُ إِلَى هَذِهِ النُّوعِيَّةِ مِنَ الْأُمُورِ.

وَقَدْ نَنْظُرُ إِلَى الثَّقَافَةِ الشَّعْبِيَّةِ. كَانَ هُنَاكَ إِعْلَانٌ تِجَارِيٌّ مُعَيَّنٌ كُنْتُ أَشَاهِدُهُ، وَهُوَ يَحْكِي قِصَّةَ سَيِّدَةٍ تَسْتَيْقِظُ وَتَتَنَاوَلُ طَعَامَ الْإِفْطَارِ مَعَ ظِلَالِ شَرِيكِ لَهَا، وَبِانْتِهَاءِ الْإِعْلَانِ، نَكْتَشِفُ أَنَّهَا امْرَأَةٌ أُخْرَى. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ مَجْرَدُ تَعْمِيمِ مَا كَانَ مِنْ خَمْسِ سَنَوَاتٍ أَوْ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، لَمْ يَكُنْ فِي الْأَفْقِ لَا فِي التَّشْرِيحِ وَلَا فِي قَرَارَاتِ الْمَحَاكِمِ وَلَا فِي الْإِعْلَانَاتِ التَّجَارِيَّةِ لِلِاسْتِهْلَاكِ الْعَامِّ.

لِذَا، نَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنْ زَمَنِ التَّغْيِيرِ، زَمَنِ تَغْيِيرِ أَتَجَرًّا وَأَقُولُ إِنَّهُ مِنْهَجِي وَسَرِيحِي. كَمَا نَتَحَدَّثُ عَنْ زَمَنِ إِرْبَاكِ. كُنْتُ أَقْرَأُ مُؤَخَّرًا مَقَالًا لِبَعْضِ عُلَمَاءِ الْجَمَاعَةِ عَنِ "الْإِرْبَاكِ الثَّقَافِيِّ". وَهَذَا مُصْطَلَحٌ يُعَدُّ فَتَى الطَّابِعِ رَغْبُوا فِي اسْتِخْدَامِهِ لِتَوْضِيحِ مَدَى تَخَالُطِ الْفِئَاتِ الثَّقَافِيَّةِ. كَمَا أَنَّ هَذَا الْإِرْبَاكِ الثَّقَافِيِّ يُسْهِمُ أَيْضًا، بِالْإِضَافَةِ إِلَى تَخَالُطِ الْفِئَاتِ، فِي قِلَّةِ الْقَرَارَاتِ - سِوَاهُ كَانَتْ قَرَارَاتٍ أَخْلَاقِيَّةً مُجْتَمَعِيَّةً أَوْ قَرَارَاتٍ تَشْرِيحِيَّةً قَانُونِيَّةً - مَبْنِيَّةً عَلَى الْمَبَادِي. فَالْإِرْبَاكِ قَائِمٌ وَالتَّغْيِيرُ قَائِمٌ. وَعَدَمُ الْيَقِينِ هُوَ نَمْرَتُهُمَا. عَلَى شَاكِلَةِ "إِنِّي لَا أَشْعُرُ بِقَدَمِي تَحْتِي". وَمِنْ نَوْعِيَّةِ لِحَظَّةٍ "رَيْبٌ فَا ن وَيَنْكِلُ" بِالرَّعْمِ مِنْ عَدَمِ مُرُورِ الزَّمَنِ، فَقَدْ مَضَتْ سَنَتَانِ فَحَسَبُ. لِذَا يَجُوزُ أَنْ نُسَمِّيَهُ "إِصَابَةً ثَّقَافِيَّةً"، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

فَهَذَا هُوَ الزَّمَنُ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ. وَكثيرونَ يُرِيدُونَ الصِّيَاحَ "يَا فَرُوحَ الْقِلَّةِ، السَّمَاءُ تَتَدَاعَى". "التَّهَيَّأَةُ اقْتَرَبَتْ"، أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ نُرِيدُ أَنْ نَتَمَثَّلَ بِجِرُومٍ، وَنَهْرَبُ إِلَى كَهُوفِنَا فِي بَيْتِ لَحْمٍ لِنَتَضَيَّ فِيهَا السَّنَةَ الْآخِرَةَ مِنْ حَيَاتِنَا. لَا أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذِهِ هِيَ الْاسْتِجَابَةُ الصَّحِيحَةُ. بِمَعْنَى، قَدْ يَحْمِلُ بَعْضُ هَذَا التَّغْيِيرِ الثَّقَافِيِّ فِي طَيَّاتِهِ جَانِبًا إِيْجَابِيًّا. أَيُّ قَدْ يَكُونُ هَذَا التَّغْيِيرُ الثَّقَافِيُّ أَمْرًا صَالِحًا، لَا سِيَّمَا إِذَا كُنَّا نُنْشِئُ جِرُومَ بَعْضِ الشَّيْءِ، وَنَضْعُ ثِقَّتَنَا فِي الْمَوَاضِعِ الْحَاطِطَةِ، نَضْعُ ثِقَّتَنَا فِي الثَّقَافَةِ، وَنَضْعُ ثِقَّتَنَا فِي الْمَشَاهِيرِ، وَنَضْعُ ثِقَّتَنَا فِي انْتِخَابِ الرَّئِيسِ الْمُنَاسِبِ لِلْبِلَادِ، وَنَضْعُ ثِقَّتَنَا فِي تَعْيِينِ الْقَضَاةِ الْمُنَاسِبِينَ لِيَجْلِسُوا فِي الْمَحَاكِمِ الْمُنَاسِبَةِ.

إِنَّ بَعْضَ هَذِهِ التَّغْيِيرَاتِ الثَّقَافِيَّةِ قَدْ تَكُونُ فِي الْوَاقِعِ إِيْجَابِيَّةً لِأَنَّهَا تَدْفَعُنَا لِطَرْحِ سُؤَالٍ: أَيُّنَ نَضْعُ ثِقَّتَنَا؟

هَلْ مِنْكُمْ فَرْدٌ فِي فَرِيْقِ رِيَاضِيٍّ وَلَهُ مُدْرَبٌ؟ حَسَنًا. هَلْ قَالَ لَكَ مُدْرَبُكَ قَبْلًا عِبَارَةً: "تُعَوِّزُكَ الثَّقَةُ". هَلْ سَمِعْتَهَا قَبْلًا مِنْ أَيِّ مُدْرَبٍ؟ كَانَ مُدْرَبِي فِي السَّبَّاحَةِ يَحْمِلُ شَيْئَيْنِ: صَفَارَةً وَلَوْحَ سَبَّاحَةٍ. لَوْحُ السَّبَّاحَةِ مُفِيدٌ جَدًّا. لِأَنَّهُ وَأَنْتَ تَسْبُحُ تَدْخُلُ الْمِيَاهُ إِلَى أُذُنِكَ، فَلَا تَسْمَعُ أَيَّ شَيْءٍ، كَمَا أَنَّكَ تَحْتُ الْمَاءِ. لِذَا كَانَ لَوْحُ السَّبَّاحَةِ نَافِعًا، لِأَنَّهُ حِينَ تَقْتَرِبُ إِلَى أَيِّ جَانِبٍ وَيُرِيدُ الْمُدْرَبُ إِخْبَارَكَ بِشَيْءٍ، كُلُّ مَا عَلَيْهِ فَعَلُهُ هُوَ الْإِمْسَاكِ بِهَذَا اللَّوْحِ وَلَمَسَ رَأْسَكَ بِهِ لِيَجْذِبَ انْتِبَاهَكَ بِأَنَّهُ يُرِيدُ إِخْبَارَكَ بِشَيْءٍ. وَأَنَا تَحْدِيدًا أَتَدَكَّرُ ذَلِكَ الْوَقْتِ. إِذْ كُنْتُ أَتَدْرَبُ عَلَى السَّبَّاحَةِ عَلَى الظَّهْرِ، وَكُنْتُ لَا أَمَارِسُهَا عَلَى نَحْوِ صَحِيحٍ. فَكُنْتُ أَسْبُحُ نَحْوَ الْأَعْلَامِ، وَأَقْتَرِبُ مِنَ الْحَاطِطِ لِأَحَاوِلِ الْإِلْتِفَافِ ثُمَّ أَخْرُجُ، ثُمَّ أَذْهَبُ إِلَى الْحَاطِطِ. كُنْتُ أَتَدْرَبُ عَلَى هَذَا مِرَارًا وَتَكَرَّرًا، لَكِنِّي لَمْ أَكُنْ أُوَدِّيهِا بِالشَّكْلِ الصَّحِيحِ. فَأَتَى الْمُدْرَبُ إِلَيَّ. وَلَمَسَ

رَأْسِي. فَتَنظَرْتُ إِلَيْهِ بَعَيْنِ مُحَمَّرَةٍ وَقُلْتُ: "نَعَمْ يَا مُدْرَبِي؟" فَقَالَ: "أَتَعَلَّمُ مَا الْمُسْكَكَةُ؟" وَبَدَأَتْ مَوْسُوعُهُ ذَهْنِي الْمَعْرِفِيَّةَ فِي الْعَمَلِ. ظَنَنْتُ أَنَّ هُنَاكَ إِجَابَاتٍ كَثِيرَةً لِذَلِكَ السُّؤَالِ. فَقَالَ لِي: "تُعَوِّزُكَ الثَّقَّةُ". أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

كُنْتُ أَعْرِفُ صَدِيقًا يَافِعًا كَانَ مُعْجَبًا بِفَتَاةٍ مُعَيَّنَةٍ وَلَمْ يَنْجَحْ قَطُّ فِي مَوَاعِدَتِهَا. فَكُنْتُ فِي مَنْزِلِهِ ذَاتَ يَوْمٍ، وَكُنَّا نَتَحَادَثُ. وَكَانَ وَالِدُهُ حَاضِرًا، وَكَانَ يُحَاوِلُ شَرْحَ الْمَوْقِفِ لِوَالِدِهِ بَاحِثًا عَنْ آيَةٍ نَصِيحَةٍ أَبِيَّةٍ. فَنظَرَ وَالِدُهُ إِلَيْهِ وَقَالَ: "أَتَعَلَّمُ أَيْنَ تَكْمُنُ الْمُسْكَكَةُ؟" تُعَوِّزُكَ -فَسَبَقَهُ وَقَالَ: "أَعَلِمَ أَعَلِمَ. تُعَوِّزُنِي الثَّقَّةُ". فَقَالَ: "حَسَنًا كُنْتُ سَأَقُولُ تُعَوِّزُكَ سَيَّارَةً، لَكِنَّ تُعَوِّزُكَ الثَّقَّةُ أَيْضًا". سَأَوَّضِحُ مَاذَا تَعْنِي الثَّقَّةُ. أَحْيَانًا، إِنَّهَا مَسْأَلَةٌ دَرَجَاتٍ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ فَإِنْ كُنْتُ تُرِيدُ أَنْ تَصِيرَ رِيَاضِيًّا، وَتُرِيدُ تَحْقِيقَ الْهَدَفِ، عَلَيْكَ التَّحَلِّيُ بِالثَّقَّةِ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ لِئِنْجَزَ أَيَّ مَشْرُوعٍ عَمَلٍ، لَا بُدَّ أَنْ تَتَحَلَّى بِبَعْضِ الثَّقَّةِ. وَأَنْتِ مُتَّجِهَةٌ نَحْوَ مَوْقِفٍ يَتَطَلَّبُ مُعَالَجَةً دَقِيقَةً، سَوْفَ تَحْتَاجُ إِلَى الثَّقَّةِ. كَمَا أَنَّ هُنَاكَ أَيْضًا إِحْسَاسًا بِأَنَّ الثَّقَّةَ لَا تَتَعَلَّقُ حَقًّا بِدَرَجَتِهَا. إِنَّهَا لَيْسَتْ مُتَوَاصِلَةٌ. فَالْمَسْأَلَةُ لَيْسَتْ لِمَاذَا أَحْتَاجُ إِلَى الْمَزِيدِ مِنَ الثَّقَّةِ. بَلِ السُّؤَالُ الْأَوْقَعُ هُوَ "مَا حَلَّ ثَقَّتِي؟"

فَأَنَا أَعْتَقِدُ أَنِّي أَسْتَطِيعُ الْإِجَابَةَ عَنْ هَذَا السُّؤَالِ. فَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ عَنْهُ، أَنَّنَا فِي وَفْتٍ يَتَطَلَّبُ ثَقَّةً. تُعْجِبُنِي هَذِهِ الْكَلِمَةُ.

أَعْتَقِدُ أَنَّهُ بِإِمْكَانِنَا الْقَوْلَ إِنَّهُ وَفْتُ لِلشَّجَاعَةِ. وَسَتَظَلُّ نَقُولُ هَذَا. إِنَّهُ وَفْتُ لِلشَّجَاعَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ. فِي أَحَدِ الْمَوَاقِفِ فِي رِوَايَةِ "السَّائِحِ الْمَسِيحِيِّ"، جَعَلَ بَنِيَانُ الْمَسِيحِيِّ يَقُولُ: "كُنْتُ أَسْتَطِيعُ مُسَايَرَةَ الْحَشْدِ". إِنْ جَازَ التَّعْبِيرُ. "كُنْتُ أَسْتَطِيعُ هُنَا مُجَارَاةَ التَّوَقُّعَاتِ، لَكِنِّي لَمْ أَفْعَلْ. حَتَّى وَإِنْ عَنَى ذَلِكَ وَفُوفِي حَيْثُ أَنَا حَتَّى تُعْطِي الرِّمَّةَ عَيْنِي". أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟ "أَصَلِّي بِأَنْ يَهْبِنِي اللَّهُ الشَّجَاعَةَ لِفِعْلِ الصَّوَابِ". فَلْنُظَلِّقْ عَلَيْهِ إِذَنْ وَفْتًا لِلشَّجَاعَةِ بِسَبَبِ الْإِرْتِبَاكِ الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَبِسَبَبِ الرَّمَالِ الْمُتَحَرِّكَةِ، وَبِسَبَبِ مَا نُوَاجِهُهُ.

كَمَا يُمَكِّنُنَا التَّحَدُّثُ عَنِ الْإِفْتِنَاعِ. وَأَنَا أُرِيدُ ذَلِكَ. إِنَّهُ وَفْتُ لِلإِفْتِنَاعِ. عِنْدَمَا نَحْوَلُ الصَّغْطَ الثَّقَافِيَّ الْآنَ -اسْتَمْتَعْنَا بِلَحْظَةٍ مُعَيَّنَةٍ، بِخَاصَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ، إِذْ كَانَ مَقْبُولًا لِلغَايَةِ أَنْ تَكُونَ مَسِيحِيًّا، وَمَقْبُولًا لِلغَايَةِ أَنْ تَكُونَ مُرْتَادًا لِلْكَنِيسَةِ، وَمَقْبُولًا لِلغَايَةِ التَّحَدُّثُ عَنِ الْكِتَابِ الْحَيِّدِ ثَقَافِيًّا. وَيُعَدُّ مُعْظَمُ ذَلِكَ الْحُرَافَا. إِذَا يُعَدُّ الصَّغْطُ: "حَسَنًا، رُبَّمَا عَلَيَّ الْإِنْسِحَابُ وَالتَّرَاجُعُ قَلِيلًا. رُبَّمَا عَلَيَّ أَلَّا أُفْرِطَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ مُعْتَقَدَاتِي. رُبَّمَا عَلَيَّ جَحْدُ بَعْضِ الْآرَاءِ الَّتِي لَمْ تُعَدَّ بِبَسَاطَةٍ مَقْبُولَةً ثَقَافِيًّا بَعْدَ الْآنَ". حِينَهَا يُجَيِّمُ جُبْنُنَا، وَتَبْدَأُ نَحْبُو، حَتَّى إِنَّنَا نَسْتَسَلِّمُ بِبَسَاطَةٍ وَنَتَحَلَّى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ لِمُجَرَّدِ أَنْ نَنحَازَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرِ. سَوْفَ نَتَحَدَّثُ عَنْ هَذَا فِي مُحَاضَرَاتِ قَادِمَةٍ، وَتَحْدِيدًا فِي طُورِ حَدِيثِنَا عَنْ ضَرُورَةِ وَضْعِ ثَقَّتِنَا فِي الْكَلِمَةِ وَفِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ خَاصَّةً عِنْدَمَا تُقَاوَمُ الْكَلِمَةُ. بَلَا أَدْنَى شَكٍّ نَحْنُ نَرَى أَنَّ هَذِهِ الْمَقَاوِمَاتِ الثَّقَافِيَّةَ الْجَارِيَةَ تَنْطَوِي عَلَى تَحْدِي أَنْ كَلِمَةَ اللَّهِ لَمْ تُعَدَّ قَابِلَةً لِلتَّطْبِيقِ، وَأَنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ أَصْبَحَتْ بِلا سُلْطَانٍ وَعَدِيمَةَ التَّفَعُّعِ لِلوُجُودِ الْبَشَرِيِّ. بَلَا أَدْنَى شَكٍّ هَذَا مَا نَتَحَدَّثُ عَنْهُ.

فَهَذَا وَقْتُ لِلشَّجَاعَةِ، وَوَقْتُ لِلِاقْتِنَاعِ، لَكَيْتِ اعْتَقِدُ حَقًّا أَنَّهُ وَقْتُ لِلتَّقَةِ-بِأَنَّ لَا بَدَّ أَنْ نَضَعَ ثِقَتَنَا فِي اللَّهِ. انطوى تاريخ إسرائيل على لحظة -أريد أن أجدب انبثاها إلى هذا النص المقدس- انطوى تاريخ إسرائيل على لحظة حين كانت السماء تسقط. كانت بابل تضيق على أورشليم، ولا أمل لليهودا بالتغلب على جيش بابل. وإرميا علم ذلك. علم أن الأمر لا يتعلق بمدى قوة بابل. بل يتعلق بكسر إسرائيل للعهد. وقد أوضح الله ذلك إذ قال: "احفظوا التاموس، وستتباركون في الأرض. وإن وضعتموه جانبا وتعدتيم عليه، ستعاقبون. وستجدون أنفسكم، حتما، خارج الأرض". كانت مملكة الشمال، إسرائيل، عبرة لمملكة الجنوب، يهودا. لقد رأت الأمر يحدث. رأت أشور تسي أسباط الشمال. ومع ذلك تمادت يهودا في عصيانها وتمردتها وأزدرايتها بناموس الله. لذا، ظهر إرميا النبي في المشهد. كان في الحقيقة الهزيع الرابع، حين خط إرميا سفره. يقول في الآية الثالثة والعشرين من الأصحاح التاسع: "هكذا قال الرب: لا يفتخرن الحكيم بحكمته". فالأمر المثير هنا هو أن الحكمة سمة صالحة. افرووا سفر الأمثال. كم مرة أوصانا فيه بالتحلي بالحكمة؟ لكن في الآية الثالثة والعشرين من الأصحاح التاسع يقول إرميا: "هكذا قال الرب: لا يفتخرن الحكيم بحكمته"، لذا تتحتتم علينا معرفة ماذا يجري هنا. ثم يكمل: "ولا يفتخر الجبار بجزوته، ولا يفتخر الغني بغناه". اعتقد أن ما نقرأه هنا هو أحد الأمور "العابرة" التي يمكننا رؤيتها، إنها الأمور العابرة على المستوى الأفقي، الأمور الزائلة التي نراها وترعب، كرد فعل غالباً، أن نضع ثقتنا بها. فلي الحكمة، ولي القدرة، ولي الغنى. هاتي ما عندك يا بابل! لن ينفع أي من هذه الأشياء. "بل بهذا ليفتخرن المفتخر: بأنه يفهم ويعرفني أي أنا الرب الصانع رحمة وقضاء وعدلاً في الأرض، لأني بهذه أسر". كان إرميا واضحاً فيما يقوله لسامعيه. أنتم تضعون ثقتكم في الأشياء الخطأ. الأمر يشبه الذهاب للامتحان النهائي وأنت مستعد جيداً، لكنك قد ذاكرت للامتحان الخطأ. وما ذاكرت له لن يعينك على إجابة هذا الامتحان. كانوا مستعدين للامتحان الخطأ، وكانوا يضعون ثقتهم في غير محلها، فكان عليهم وضع إيمانهم وثقتهم في الله.

كان عام ١٥٢٧ سنة قاسية على مارتين لوتر. ربما تعتقد أنه كان عاماً عظيماً. كانت الذكرى السنوية العاشرة لتعليق البود الخمسة والتسعين، كانت الكنيسة الوليدة قائمة وتخطو سريعا، والطلاب ملتحمون بكلية ويتنبرج. كانت بداية أمور جديدة عظيمة. لكنها كانت سنة قاسية على لوتر. إذ ضرب الطاعون ويتنبرج، وشعر أفراد أسرته بالمرض، فأمره فريدريك وايز بالمغادرة هو وهبيته الشديس. لكن لوتر قرّر البقاء للاعتناء بالمرضى. وفقد مارتين وزوجته كايت رضيعتهما في هذه السنة. كما كانوا لا يزالون في أجيح الحرب، ثورة الفلاحين، فحاول لوتر التوسط. لكن بعد انتهاء الحرب، اعتقد كل من الفلاحين والتبلاء أنه انقلب عليهما. لقد انتهى به الحال كما لو أنه خسر الطرفين. كانت سنة قاسية على لوتر. فكتب ترنيمه. أنتم تعرفونها. إنها ترنيمه لوتر التي نحبها. بعنوان "إلهنا، حصن

مَنِيْعٌ" (A Mighty Fortress is Our God). مِنْ كُلِّ الضَّيْقِ الَّذِي مَرَّ عَلَى حَيَاتِهِ كَتَبَ: "هَذَا الْعَالَمُ تَمَلَّؤُهُ الشَّيَاطِينُ" - "هَذَا الْعَالَمُ تَمَلَّؤُهُ الشَّيَاطِينُ". التَّرْنِيمَةُ مُمْتَلِئَةٌ بِعَدَمِ الرَّاحَةِ وَالتَّوَتُّرِ وَالْقَلَقِ وَعَدَمِ الشُّعُورِ بِالْأَرْضِ تَحْتَ الْأَرْجُلِ.

فَإِلَى أَيْنَ التَّجَا لُوْتْرُ؟ كَمَا يَقُولُ الْمَزْمُورُ الَّتِي اقْتُبِسَتْ مِنْهُ هَذِهِ التَّرْنِيمَةُ- الْمَزْمُورُ ٤٦- "مَلَجْنَا إِلَى إِلَهٍ يَعْقُوبَ"- التَّجَا إِلَى اللَّهِ. وَوَضَعَ ثِقَّتَهُ فِي اللَّهِ. وَوَضَعَ ثِقَّتَهُ فِي اللَّهِ، عَالِمًا أَنَّهُ يَضَعُ ثِقَّتَهُ فِي الْمَسِيحِ أَيْضًا. بِأَنَّهُ الْكَلِمَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي سَتُسْقِطُ جَمِيعَ أَعْدَائِنَا. الْكَلِمَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي سَتُسْقِطُ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَقِفُ أَمَامَنَا. "الْكَلِمَةُ الْوَحِيدَةُ فَوْقَ كُلِّ الْقُوَى الْأَرْضِيَّةِ"- فَلَإِنَّا نُنْسَ هَذَا- "فَلَإِنَّا نُنْسَ هَذَا، لِقَبْلِ الْكَلِمَةِ". فَهَكَذَا يَقُولُ لُوْتْرُ يَدْبِغِي أَنْ نَضَعَ ثِقَّتَنَا فِي اللَّهِ، وَيَدْبِغِي أَنْ نَضَعَ ثِقَّتَنَا فِي كَلِمَةِ اللَّهِ، وَيَدْبِغِي أَنْ نَضَعَ ثِقَّتَنَا فِي الْمَسِيحِ، وَفِي قُوَّةِ إِجْمَالِهِ. أَتَعْلَمُونَ كَيْفَ أَنْهَاهَا؟ قَالَ: "وَإِنْ قَتَلُوا الْجَسَدَ". كَيْفَ نُرْتَمُ هَذَا عَقْوِيًّا؟ أَتَعْلَمُونَ، عِنْدَمَا أَرْتَمُ هَذَا الشَّطْرَ أَحَالَ أَنْ "لُوْتْرُ لَطَالَمَا كَانَ مُتَطَرِّفًا". لُوْتْرُ لَمْ يَعْرِفْ شَيْئًا اسْمُهُ مُنْتَصَفُ الطَّرِيقِ. فَهُوَ لَمْ يَقُلْ "وَإِنْ أَدُونِي". لَا، بَلْ "إِنْ قَتَلُوا الْجَسَدَ". أَهَذَا حَقِيقِي؟ أَهَذَا حَقِيقِي وَجُودِيًّا؟ لِأَنَّ "حَقَّ اللَّهُ تَابِتٌ وَبَاقٍ". وَهِيَ هِيَ الْحَقُّ الْوَحِيدُ الثَّابِتُ الْبَاقِي، الْحَقُّ عَيْنُهُ الَّذِي اعْتَصَمَ بِهِ أَوْعُسْطِينُوسُ حِينَمَا كَانَتْ رُومًا تَسْقُطُ، وَالْحَقُّ ذَاتُهُ الَّذِي أَعْلَنَهُ إِرْمِيَا، صَوْتُ اللَّهِ، إِلَى شَعْبِ إِسْرَائِيلَ؛ كَانَ الْوَاقِعُ الْوَحِيدَ الَّذِي نَسُوا أَمْرَهُ. الْحَقُّ الْوَحِيدُ هُوَ أَنْ مَلَكُوتَهُ أَبَدِيٌّ. هَذَا هُوَ الْوَاقِعُ. لِذَا، لَا نَحْتَسِي حَوَادِثَ زَمَنِنَا، إِنَّهُ وَقْتُ لِلثَّقَةِ.

فِي الْمَحَاضِرَةِ الْقَادِمَةِ، سَوْفَ نَتَمَعَّنُ فِي مَعْنَى وَضَعِ ثِقَّتِنَا فِي اللَّهِ.

الدكتور ستيفن نيكيلس (@DrSteveNichols) هو مدير كلية الكتاب المقدس للإصلاح (Reformation Bible College)، والمسؤول الأكاديمي الرئيسي في خدمات ليجونير، وعضو هيئة التدريس في خدمات ليجونير. وهو مؤلف العديد من الكتب ويقدم برامج إذاعية قصيرة بعنوان "٥ دقائق في تاريخ الكنيسة" (5 Minutes in Church History) و"الكتاب المفتوح" (Open Book).